تقديم لديوان «صحوة مسلم»(*)

(١)

محمد فؤاد محمد نموذج للشاعر الذي يكافح بدأب وإصرار في مواجهة تحدّيات الصمت والعزلة والنسيان...

صخب الميكانيك في حياتنا الراهنة يكاد يعلو على كل صوت... والشاعر الذي لا يملك حنجرة قوية... يضيع...

ينضاف إلى هذا أن الشاعر المسلم، بوجه الخصوص، يتعرض - لسبب أو آخر- لحصار أشد قسوة، ومن ثم فإن عليه أن يبذل جهداً استثنائياً من أجل التحقّق، وإلاّ خسر المعركة منذ اللحظات الأولى، كما خسرها ولا يزال كثيرون لا يكاد يحصيهم عدّ.

منذ بداية الثمانينيات وقصائده تصلني... بعضها يطلّ على استحياء... فيه كل ما في المحاولات الأولى من إيماض بقدرة واعدة، وفيها -كذلك- شيء من الضعف والخلل والاضطراب في سياقي الشكل والمضمون إذا جاز الفصل بين السياقين.

(*) للشاعر محمد فؤاد محمد - ولد في المنيا بمصر عام ١٩٥٩م. له عدة دواوين شعرية منها: أوراق مبعثرة في الذاكرة، والجرح والحصاد، ودمعة من عام الحزن، ووفاء تكلمت دماً. وله مسرحيات وأناشيد للأطفال.

ومنذ بداية الثمانينيات وهو يكافح للتحقّق بقدر من الحضور على مستوى الصحف والمجلات والندوات والتجمّعات الأدبية، ماضياً صوب ما كان يحلم به دائماً: أن يصير شاعراً يُسمع صوته.

ورسائله كانت تترى عليّ... أقرؤها بشغف لمتابعة «نبض» الإصرار على مواصلة المسير... وكنت أجيبه دائماً بالعبارة ذاتها: إن عليه أن يواصل المسير... أن يجرّب، وينشر، ويُسمع القريب والبعيد وأن يحتس دائماً أنه لا يزال -بعد- في بدايات الطريق، وأن عليه أن يبذل جهداً مضاعفاً لقطع خطوات أخرى.

ماضياً إلى هدفه البعيد، كأي شاعر أو فنّان، تتجمع لديه «باكورة» القصائد «الأولى» ويغريه الانتشار في الصحف والمجلات والمنتديات على أن يجعل منها ديواناً.. وإذْ جاءت المحاولة موازية تماماً لزمن الصحوة، متعاشقة معها، تنبض بنبضها، وتحكي عن همومها وأحلامها، آثر أن يسمّيها «صحوة مسلم» وبعث بها إليّ يطلب تقديماً... كنت أعرفه جيداً... فلم أتردّد لحظة في الاستجابة لطلبه..

إن الناقد المسلم، على كثرة مشاغله، على ما يعانيه من حصار المطالب التي تتدفق عليه كسيل لا يرحم... ليس من حقه أن يرفض طلباً كهذا ليس من حقه، إن على مستوى الضرورات الإسلامية، أو الأخلاقية، أو الفنية، لأنها جميعاً تلزمه بمتابعة ما

يجري في الساحة والإنصات للأصوات التي تكافح من أجل أن يكون لها على الخارطة مكان..

عشرات السنين، والصمت، وإيثار الراحة، يقتل محاولات كهذه، بينما «الآخرون» الذين يعملون تحت مظلات أخرى، ما تركوا صغيرة ولا كبيرة إلا قالوا فيها كلمتهم وأضاؤوا إزاءها السبيل.

إن روح الفريق «الضائعة» منذ زمن بعيد في ساحات الأدب الإسلامي يتحتّم أن ترجع، بإحساس أكثر رهافة بالمسؤولية، وحينذاك سيكون حوار المبدع والناقد سعياً مشتركاً من أجل تعزيز كلمة الله في الأرض، وهي -إذا أردنا الحق- مهمة شريفة عزيزة المنال تستحق أن نضحي من أجلها بالكثير.

خيّرني «محمد فؤاد» على أن ألغي من قصائده ما أشاء... علامَ يدّل هذا، إن لم يدل على خصيصة الاعتراف بالخطأ والقصور الذي هو أسّ الفضائل جميعاً؟!

(٢)

نُسجت قصائد المجموعة على مدى يقرب من العقد من الزمن، ومعظمها أخذ طريقه إلى هذه الصحيفة أو المجلة أو تلك... وإلى أن ينشد في هذا المنتدى أو ذاك... لقد احتكّت بالقارئ والجمهور وكسبت قدراً كبيراً من الشرعية في عالم النشر والظهور.

وهي قصائد تتراوح بين شعر العمود وشعر التفعيلة الحرّ، وإن كان النمط الأوّل يطغى عليها... ولا يكاد المرء يسمع فيها إلاّ «الهمّ العام» الذي يتوحّد معه الشاعر، فلا نكاد نجد لهمومه الذاتية أثراً، لأن هذه احتواها ما هو أعمق بكثير وأشمل بكثير...

والبدايات الأولى تكون حادّة، صريحة الانحياز إلى حدّ كبير، فإما الإغراق في الذات وإما الانغمار في الهمّ العام، ولقد اختار محمد فؤاد الثانية.

منظوره الإسلامي الموغل في شراييه... رؤيته الإيمانية للوقائع والظواهر والموجودات والأشياء... لا تمنحه الخيار... فما يلبث، منذ اللحظات الأولى، أن يجد نفسه «ملتزماً» بجعل الكلمة تقاتل، هي الأخرى، على طريقتها الخاصة، كل قوى الشرّ والإعاقة والانحراف، من أجل أن يفيء الإنسان إلى الصراط، وتسترجع الأمة هويّتها الضائعة، فيكون لها في هذا العالم مكان.

وهو يعلن عن موقفه هذا بوضوح في «الرسالة إلى أهل الشعر» التي يكشف عنوانها عن البؤرة التي تستقطب قصائد الديوان:

«فبعض الناس يبغي الشعر لهواً

وأما غايتي في الشعر صدقٌ

لهم في ذاك ألسنة فصيحة

فشعري بين قلبي والقريحهْ»

كما يعلن عنه في قصيدته «أطلق جواد الشعر» التي تفوق سابقتها بكثير:

«فأطلقْ جواد الشعر إنك فارس

وقل للسان الحق: هل تتلجلجُ؟

وسافر ففي الدنيا عناءٌ وحلة

فمثلك مأمول إلى القصد يدلجُ

تركت صبابات الهوى متعففاً

فلا الثغر ورديّ ولا الطرف أدعجُ

ورمت طريق الحق مقتنعاً به

فدربك مأمون ومثلك ينهجُ

فإن طريق الله يسطع حوله

مصابيح من هدْي المحجة تسرجُ»

فإذا ما تابعنا قصائد الديوان لاختبار مصداقية هذا التوجه وجدنا أنفسنا بإزاء ثلاث وعشرين قصيدة تتعامل مع «الهمّ العام»: متسعٌ عن القضية الفلسطينية: (صحوة مسلم، سمعاً يا قدس، شذا النصر، طفل أتى من عبق التاريخ، طيوف فلسطينية، دماء على خيوط الفجر، اعترافات فلسطينية، رسالة من مبعد إلى رابين، دعوني لأقذف هذا الحجر) وثلاث عن مأساة البوسنة

والهرسك (سراييفو الحبيبة، لا تبكياه، يا معقل الفاتحين) وواحدة عن الجهاد الأفغاني (على درب الجهاد) وأخرى عن مأساة الحرب الأهلية في اليمن (يا أسفي على وطني) وأربع عن هموم المسلمين دون تحديد البيئة أو قضية ما (رسالة ملقاة على طريق، من غضب الرمال أصوغ نصري، تكبيرة النصر، عواصمنا العربية) وأربع عن وقائع ورموز من تاريخ الإسلام (رسالة إلى أبي ذر، طيف الهجرة، أفما وعوا من بدر الكبرى؟، الذبيح) وواحدة عن مناسبة إسلامية (حنين ودعاء)، يقابل هذا كله قصيدتان فقط عن هموم الشاعر الذاتية (يا مبضع الطب، بسمة ونسمة).

وهناك بين السياقين سياق متوحّد يلتقي فيه الخاص بالعام ويبلغ تسع قصائد تكاد تكون من أكثر قصائد الديوان نضجاً وصدقاً فنياً (عتاب، جراحات، كلمات إلى الوطن المغترب، الجرح والحصاد، بردية قديمة حديثة، عام الحزن، حنانيك يا شعري، أروى، أغاني الضياء).

(٣)

لنقف لحظات عند هذا السياق الأخير... إن الشاعر هنا لا ينفصل عن الحدث ولكنه يتعامل معه من الداخل... يتوحّد معه بعبارة أخرى، فيصير النبض والخفقان، والرؤية والمنظور، فيمنح الكلمات بالتالي دفئاً وعذوبة وصدقاً، ويكون أقرب إلى الخطاب الشعري الذي يغري بالتحام الذات بالعالم والموجودات والأشياء...

إن الالتـزام ها هنا يجيء أكـثـر عـفوية، فـلا يتـقـحّم على التشكّل الشـعري، بهذه الفكرة أو تلك، وإنما تصير الأفكار تجارب وخبرات تنسج خيوطها من أدوات الشعر وتقنيّاته، وتتشكل معه وبه، وتنمو في رحم القصيدة تماماً كما تنمو الأجنّة في بطون أمهاتها.

ونحن نقرأ بعض هذه القصائد نجد الشاعر يبلغ مرتقى صعباً ويعرض علينا رؤيته للهمّ الإسلامي العام بلسان الشاعر لا بلسان المؤرخ أو الصحفي أو الخطيب.

وهذه مسألة مهمة - إذا أردنا الحق- وهي، على خفائها وتعقيدها، عصب الالتزام المطلوب.. فثمة خيط رفيع لا يكاد يرى بين نمطين من الالتزام.. نمط يسقط معه الشعر في المباشرة والخطابية والانفصال عن الخبرة، ونمط تصير فيه الخبرة هي الشعر، ويتوحّد الشاعر مع القضية.

لا ينكر أن قصائده عن فلسطين والبوسنة وأفغانستان واليمن، والتاريخ والمناسبات الإسلامية، وهموم الإنسان المسلم في كل مكان، تنطوي بحكم كونها خطاباً شعرياً، على بعد ذاتي بكل تأكيد، لكن ثمة فرق ملحوظ بين الحالتين، فلو قدر الشاعر على أن ينطلق إلى فضاء الهمّ العام من لحظة توهّج ذاتي.. من خبرة، أو تجربة، أو إحساس بالحزن أو المرارة، كما فعل في القصائد المشار إليها، لجاءت قصائده أكثر صدقاً فنياً وأشد قدرة على

كهربة الطرف الآخر وجعله يعيش هو الآخر قضية فلسطين، أو مذبحة البوسنة، أو صراع الإخوة في البلد الواحد.. ولأصبح التاريخ حاضراً يتشكل اللحظة قبالة العين والقلب والوجدان.

لنقف عند شاهد من القصائد التي يلتقي فيها الخاص بالعام، وتتوحد الذات، حتى أعمق طبقة فيها، بالعالم والتاريخ والوطن والمصير، فتصير شيئاً واحداً..

في «كلمات إلى الوطن المغترب» يبدأ الخطاب الشعري بالمقطع التالي:

«جئت يا وطني

كي تفاجئني بالنبوءات تلو النبوءات

في ليلك السرمدي

وتذرو علي قليلاً من العشق..»

فها نحن، منذ اللحظة الأولى، إزاء حوار مؤثّر بين الإنسان والوطن، حيث يصير هذا الأخير شيئاً حيّاً يحكي، ويَعد، ويمنّي... كائناً كالإنسان نفسه يخفق بالعشق، والحزن، والوعد.

ثم يمضي الشاعر ينسج كلماته من داخل التجربة، من عمقها البعيد، فلا يصفها من الخارج منفصلاً عنها، بل متوحّداً معها:

«أستوسد الحزن

علّ الذي كان قبلي

يعلّمني كيف أنتظر الصبح

حين يفاجئني من سماء التغرّب

فالحزن يا وطني

دائم أبدي

وأنت تجيء

وترحل عنا،

وتسكن فينا،

وليس لنا نحن أن نسكنك

وحين تحدثني عن طيورك يا وطني

أزجر الطير سعداً

فتحترق الطير فوقي، وتأبى السقوط

فيقتسم البحر كل مخاوفها والسماء،

وتنتحل الأرض اسماً معاراً

يخالف كل قواميس قومي..»

والوطن ها هنا وجود حيّ، يجيء ويرحل، ويبحث عن مسكنه داخل الإنسان.. الوطن فضاء تذرع سماواته الطير، ولغز لم يقدر امرؤ على فك أسراره إلاّ بالعثور على قاموسه الفريد.

وحتى نهاية القصيدة والقارئ يملكه إحساس غامر بما يمكن أن يسمّى الشجن الكوني الذي يتغلغل في شرايين القصائد المؤثرة فيتجاوز بها المحدود إلى المطلق، ويمنحها الحزن مذاقاً شعرياً يعرفه جيداً كل من تعاملوا مع القصائد المدهشة التي ترفض المباشرة والتضحّل، أو تتحرك عند سفوح الظواهر وسطح الأشياء:

«وتهرب منها السماوات والأرض،

كل المدارات

لكنني كنت أحملها

ثم أجري وراء البحار

وخلف السماوات والأرض

أبحث عن وطنٍ .»

(الجرح والحصاد) نموذج آخر للتوحّد بين الخاص والعام، وهي قصيدة (مدوّرة) يجرّب فيها الشاعر قدرته على ممارسة الصيغ الشعرية الأكثر حداثة..

وميزة هذا النمط أنه يأخذ بتلابيب القارئ فلا يدعه إلاّ بعد قراءة آخر حرف من القصيدة بسبب من غياب المفاصل والمحطّات في بنيتها العضوية.

في (عام الحزن) وهي مقطوعة صغيرة، لكنها مرسومة بعناية.. بحرها وإيقاعها يساعدان على توصيل شحناتحا للمتلقّي، يحسُّ هذا أن العام هو عام الحزن حقاً:

« لم نبصر فيه وميض شعاع

لم تمطر فيه سحاب قط

إنْ تمطر

لا تروي إلاّ الأحزان بوادي القلب.»

المقطع التالي يرفع الدعاء إلى الله سبحانه أن يفك الأغلال وأن يفتح الطريق المقفل إلى السماء:

«يا رب

أسر بعبدك ليلاً من أغلال الحزن

اجعَل لي مسرى من هدْيك

عرّج بي يارب...»

وهو يعرف كيف يوظف دلالات واقعة الإسراء والمعراج دون أي تقحّم أو افتعال.

ها هنا، بكلمات قلائل وبتوحّد مع الحزن والعالم، وتوْق للفكاك من شدّ الأرض والصعود إلى فوق.. نجد أنفسنا قبالة الإسراء والمعراج: المغزى والجوهر.. وتلك هي مهمة الخبرة الشعرية إذا أردنا الحق.

والذين يكتبون شعراً حراً.. يجب أن يثبتوا -أوّلاً- قدرتهم على أداء الشعر العمودي الأصيل.. امتلاكهم أدوات الشعر العربي وتقنيّاته التي يشكل فيها توازن التفعيلات ذات الحبر الواحد، والرويّ والقافلة، شروطها التي لا مهادنة فيها.

وبعد أن يمنح الشاعر قارئه القناعة بتمكّنه من الأداة، يمكن أن يمضي إلى الأنماط الأكثر حداثة شرط ألاّ يضحّي البتّة بالوحدة الأساسية للتكوين الشعري وهي التفعيلة التي تنتمي في القصيدة الواحدة إلى بحر محدّد لا إلى بحور شتى..

قد يتطلّب الأمر -كذلك- احتراماً لمطالب الصوت أو الموسيقى أو الإيقاع الذي يلزم القصائد الحرّة بأنساقٍ متشابهة من القوافي تتجاوب مع بعضها عبر بنية القصيدة الحرّة..

ولقد منحنا «محمد فؤاد» القناعة في هذا كلّه، لكنه عبر عدد محدود من قصائده (الحرّة) أعطى نفسه حق تجاوز الشروط الفنية للرويّ والقافية التي هي في هذا النمط من الشعر ضرورية كضرورتها في الشعر العمودي، والفارق بين الاثنين أن وحدة البيت تكسر في شعر التفعيلة ويطلق سراح هذه من أسر التوازن العددي والتوزيع الصارم الذي يأخذ بتلابيبها هناك.. لكن القافية التي تكرر نفسها في نهايات المقاطع، متغايرة بين الحين والحين، تظل واحدة من مطالب الإبداع الشعري إذا أردنا أن نجعل شعر التفعيلة أكثر مصداقية وأشدّ إقناعاً..

وأيضاً، إذا أردنا أن نمنحه «الشرعية» التي تجعله امتداداً طبيعياً لسلالة الآباء.. يحمل البصمات والمحمولات الوراثية نفسها فلا يصير هجيناً.

إن شعر التفعيلة، بالتزامه الأشد صرامة بمطالب «النوع» وتقنيات الشعر العربي، سيقطع الطريق على خصومه، وما أكثرهم، وسيجرّدهم من سلاحهم، لأنه سيكون في هذه الحالة كالعمودي تماماً، شعراً عربياً.

(٥)

هذا ديوان أوّل لشاعر يعد بالكثير.. والدواوين الأولى -كما نعرف جميعاً- تنطوي على العادي والفريد.. المألوف والمدهش.. العتيق والمتجدّد.. المستهلك والمبدع.. تنطوي -أيضاً- على الضعف والقوة هشاشة الوليد الذي يحبو، وتعثّره وقدرة الكائن المتمرّس على المضي إلى هدفه كالسهم، واكتشافه للمجاهيل.

إنها ملحمة البطولة البشرية التي تقاتل -في كثير من الأحيان- ما يتجاوز طاقتها فتتفوّق عليها.. مأساة الإنسان المتفرّد الذي يصارع قوى تفوق قدراته المحدودة.. فينهزم -نعم- لكنه يصرّ على مواصلة الكفاح..

ما من شاعر في تاريخ العالم إلا وكانت بداياته الأولى هكذا.. ثم ما لبث عبر احتكاكه بالزمن والمكان والناس والتجارب

والخبرات والأشياء.. من خلال إنصاته المدهش لأصوات لم يتح للناس العاديين أن يستمعوا إليها.. إن بدأ رحلة الصعود إلى فوق.. والسلّم العالي مشرعة درجاته لكل الذين يملكون وهج الطموح، وغراءه.. ويعيشون عقيدة ليست كالعقائد، تتطلب منهم في كل لحظة المزيد من الإبداع والإحسان.

فالله سبحانه يحب إذا عمل أحدنا عملاً أن يتقنه، كما يعلّمنا رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام.